في الليـــل !

للأديب عبد الرحمن الخميسي

« في الليـل على فراشي طلبت من
نعيم نفسي ... طلبته فما وجدته »
[التوراة]

أَسْدَلَ اللَّيْلُ يَا حَبِيبِي سُتُورَهْ ... وَمَشَى فِي جَوَانِبِ المَعْمُورَهْ
كَاهِناً تَخْفُقُ الشُّمُوعُ عَلَى كَفْـ ... ـفَيْهِ حَيْرَى كَأَنَّهَا مَذْعُورَهْ
حَالِماً يَعْقِدُ الضَّبَابَ حَوَالَيْـ ... ـهِ أَكَالِيلَ فِي الدُّجَى مَنْثُورَهْ
شَاعِراً يَنْقُلُ النَّسِيمُ أُغَانِيـ ... ـهِ وَتَنْدَى جِوَاؤُهُ المَسْحُورَهْ
سَاحِراً يَبْهَرُ النُّفُوسَ وَيُلْقِي ... بِعَصَاهُ عَلَى الرِّيَاضِ الشَّجِيرَهْ
شَادِياً يُنْصِتُ الوُجُودُ لِمُوسِيـ ... ـقَاهُ حَتَّى كَأَنَّهَا مَنْظُورَهْ
عَابِداً تَظْمَأُ الصَّلَاةُ إِلَيْهِ ... وَمَحَارِيبُهُ السَّمَاءُ الكَبِيرَهْ
ذَاهِلاً أَغْرَقَ الدُّنَى فِي ذُهُولٍ ... مُسْتَحِبٍّ إِلَى القُلُوبِ الكَسِيرَهْ
صَامِتاً تَضْجَرُ المُرُوجُ بِنَجْوَا ... هُ وَلَكِنَّهُ وَسِيعُ السَّرِيرَهْ
سَاهِماً يَرْقُصُ الخَيَالُ حَوَالَيْـ ... ـهِ وَيُجْرِي الرَّبِيعُ فِيهِ عَبِيرَهْ
رَاحِماً يَلْجَأُ الحَزِينُ إِلَيْهِ ... بِشَكَاةٍ تَهْوِي الدَّوَامِي المَرِيرَهْ
شَاعَ فِي جَوِّهِ السُّكُونُ وَمَدَّتْ ... فِيهِ أَنْفَاسَهَا النُّجُومُ المُنِيرَهْ
وَجَرَتْ خَلْفَهُ الظُّنُونُ وَحَاطَتْهُ ... طُيُوفٌ مُجَنَّحَاتٌ سَحِيرَهْ
فَهْوَ لِلْبَائِسِ الطَّرِيدِ عَذَابٌ ... يَمْسَحُ الفَجْرُ فِي الفَضَاءِ سُطُورَهْ
وَهْوَ لِلْعَاشِقِ الوَفِيِّ سَمِيعٌ ... يَتَلَقَّى عَنْ حُبِّهِ أُسْطُورَهْ
وَهْوَ لِلشَّاعِرِ الكَئِيبِ مَلَاذٌ ... يَنْفُضُ الدَّمْعَ فِي صُوَاهُ الضَّرِيرَهْ
أَقْبَلَ اللَّيْلُ ! آهِ يَا وَيْلَتَا مِنْ ... مَقْدَمِ اللَّيْلِ لِلنُّفُوسِ الكَسِيرَهْ
أَقْبَلَ اللَّيْلُ فَاسْتَبَدَّتْ بِقَلْبِي ... حَسَرَاتٌ عَلَى عُهُودِي الخَضِيرَهْ
وَسَرَى فِي دَمِي حَنِينٌ وَشَوْقٌ ... مُبْهَمٌ ... آهِ مَا أَشَدَّ سَعِيرَهْ
وَبَحَتْ حَوْلِيَ الهُمُومُ وَنَاشَتْ ... ذَاتَ نَفْسِي كَأَنَّهَا مَسْحُورَهْ

* * *

أَقْبَلَ اللَّيْلُ فَارْتَمَتْ كَأَنِّي ... مَوْجَةٌ فَوْقَ شَطِّهِ المَحْبُوبِ
قَدَفَتْ بِي إِلَيْهِ أَشْوَاقُ رُوحِي ... وَشُجُونِي وَحَسْرَتِي وَلَهِبِي
وَارْتِيَاحِي إِلَى الظَّلَامِ وَيَأْسِي ... وَحَنِينِي إِلَى السُّكُونِ الرَّهِيبِ
وَاغْتِرَابِي عَنِ الأَنَامِ كَأَنِّي ... زَهْرَةٌ بَيْنَ جَلْمَدٍ وَجَدِيبِ
وَهُرُوبِي مِنَ الحَقِيقَةِ يَا لَيْـ ... ـلُ فَأَتْرِعْ بِخَمْرَةِ الوَهْمِ كُوبِي !
آهِ ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْسَى غَرَامِي ... وَجِرَاحِي وَذِكْرَيَاتِ حَبِيبِي
أَبْعِدُوا الصُّورَةَ الجَمِيلَةَ عَنِّي ! ... أَبْعِدُوهَا لِتُخْمِدُوا تَعْذِيبِي !
أَبْعِدُوا الصُّورَةَ الجَمِيلَةَ عَنِّي ! ... أَبْعِدُوهَا فَإِنَّهَا لَحَبِيبِي !
فَهْيَ فِي مَسْبَحِ الهَوَاءِ تَهَادَتْ ... رِقَّةً تَبْعَثُ اشْتِيَاقَ القُلُوبِ
وَهْيَ فِي جَبْهَةِ السَّمَاءِ هِلَالٌ ... يَتَغَنَّى بِنُورِهِ تَشْبِيبِي
وَهْيَ فِي الظُّلْمَةِ المَدِيدَةِ نُسْكٌ ... شَاعَ فِي رَحْبِهَا النَّدِيِّ الرَّطِيبِ
وَهْيَ فِي البَحْرِ وَالسَّمَاءِ وَفِي النُّو ... رِ وَفِي سُحْمَةِ الظَّلَامِ الرَّهِيبِ !
وَهْيَ فِي الأَرْضِ كُلِّهَا .. حَيَوَاتٌ ... وَمِثَالٌ لِكُلِّ حُسْنٍ نَشِيبِ
صَاغَهَا اللهُ مِنْ مَعَانِي هَذَا الـ ... ـكَوْنِ فَنًّا لِكُلِّ فَنٍّ ذَهِيبِ
أَبْعِدُوا الصُّورَةَ الجَمِيلَةَ عَنِّي ... أَبْعِدُوهَا لِتُخْمِدُوا تَعْذِيبِي !
كَيْفَ أَنِّي أُرِيدُ أَنْسَى غَرَامِي ... وَجِرَاحِي وَذِكْرَيَاتِ حَبِيبِي !
وَلَقَدْ أُطْبِقَتْ جُفُونِي وَلَكِنْـ ... ـنِّي قَدْ تَرَاءَتْ رُسُومُهُ فِي جُفُونِي
أَيُّهَا اللَّيْلُ قَدْ فَزِعْتُ إِلَى عَطْـ ... ـفِكَ مِنْ ظُلْمِ حُرْقَتِي وَكُرُوبِي
أَنَا أَهْوَاكَ يَا ظَلَامُ فَأَطْفِئْ ... لِي دَرَارِيكَ وَاسْتَمِعْ لِنَحِيبِي !
وَلْتَكُنْ فِي النَّسِيمِ مِنْكَ شَكَاتِي ... إِرْوِهَا لِلسَّمَاءِ عَنْ مَكْرُوبِ !

* * *

أَيُّهَا اللَّيْلُ لَيْتَنِي كُنْتُ نَجْماً ... عَائِماً فِي مِيَاهِكَ الزَّرْقَاءِ
أَقْطَعُ الظُّلْمَةَ الأَبِيَّةَ لَهْفَا ... نَ إِلَى مَخْدَعِ الحَبِيبِ النَّائِي
ثُمَّ أُضْفِي عَلَيْهِ مِنِّي خُيُوطاً ... تَحْتَوِيهِ فِي ضَمَّةٍ رَعْنَاءِ
لِأُرَوِّي بِقُبْلَةٍ مِنْهُ نَفْسِي ... تُطْلِقُ الرُّوحَ مِنْ أَسًى وَعَنَاءِ
وَأُحَلِّي بِسِحْرِ عَيْنَيْهِ ذَاتِي ... ثُمَّ أَزْهَى عَلَى نُجُومِ السَّمَاءِ
غَيْرَ أَنِّي يَا حَسْرَتَا آدَمِيٌّ ! ... قَيَّدَتْنِي أَرْضِيَّتِي فِي بِنَائِي !
أَيُّهَا اللَّيْلُ لَيْتَنِي كُنْتُ عُصْفُـ ... ـوراً طَلِيقاً مَعَ السَّنَى وَالهَوَاءِ

كنتُ نَفَّرتُ فَوقَ نافِذَةِ النَّحْـ ... ـبِ أدعُوهُ لِاستِماعِ غِنائي
لِيُغَنِّي مَعِي وَيُحكِمَ قَيدِي ... بَينَ كَفَّيهِ راضِيًا بِشَقائي
غَيرَ أنِّي يا حَسرَتا آدَمِيٌّ ! ... قَيَّدَتني أرضِيَّتي في بِنائي
أيها الليلُ لَيتَ أنِّي هَواءٌ ... سابِحٌ في حَدِيقَةٍ زَهراءِ
أجمَعُ العِطرَ مِن ثُغُورِ الأقاحي ... وَالرِّياحينِ في مَدَى أحنائي
ثُمَّ أمضِي إلى حَبِيبي عَلِيلاً ... أسكَرَ البَدرُ عُنصُرِي بالضِّياءِ
أحمِلُ الطِّيبَ في فُؤادِي إليهِ ... وَأُقَرِّي حِيالَهُ أحشائي
لِأكُونَ الأنفاسَ في رِئَتَيهِ ... وَلِأحظَى في صَدرِهِ بِفَنائي
غَيرَ أنِّي يا حَسرَتا آدَمِيٌّ ! ... قَيَّدَتني أرضِيَّتي في بِنائي
أيُّها اللَّيلُ ! لَيتَني كُنتُ رَوضاً ... مُورِقَ الزَّهرِ، وارِفَ الأفياءِ
نَمَّقَتْ صَفحَتي أنامِلُ حُسنًا ... رَبِيعِيَّةُ النَّدَى والرُّواءِ
كُنتُ نَسَّقتُ مِن وُرُودِي تاجًا ... لِحَبِيبي كالهالَةِ البَيضاءِ
غَيرَ أنِّي يا حَسرَتا آدَمِيٌّ ! ... قَيَّدَتني أرضِيَّتي في بِنائي

* * *

أيُّها اللَّيلُ يا مُقِيلَ الحَيارَى ... وَالمَساكِينِ في البَلاءِ الشَّدِيدِ
في دَمِي ثَورَةٌ يَبُثُّ لَظاها ... هاجِسٌ أَلهَبَتهُ نارُ الصُّدُودِ
وَعَلى مُهجَتِي يَؤُزُّ التِياعٌ ... جائِعٌ لِلوُقُودِ بَعدَ الوُقُودِ
وَأنا بَينَ ما أُعانِي لَهِيفٌ ... أتَهاوَى في قَلبِيَ المَهدُودِ
نَهزَةٌ لِلشُّجُونِ لَكِنَّ رُوحِي ... تَتَخَطَّى إلَيكَ كُلَّ السُّدُودِ
خُذ بِنَفسِي إلى السَّلامِ وَهَدِّئ ... سَورَةَ الوَجدِ في فُؤادِي العَمِيدِ
وامسَحِ السُّهدَ عَن عُيُونِي وصُغ مِن ... زَفَراتِي النَّشِيدَ تِلوَ النَّشِيدِ
فَارتِقابُ الوِصالِ أمرٌ بَعِيدٌ ... خِلتُهُ لَيسَ كالسُّهَى بِالبَعِيدِ
وَحَرامٌ عَلَى الغَرامِ ضَياعِي ! ... وَحَلالٌ في ظِلِّهِ تَغرِيدِي !
وَحَرامٌ عَلَى العَذابِ اجتِياحِي ... وَأنا ما بَلَغتُ عُمرَ الوُرُودِ
وحرامٌ عَلَى العُيُونِ اللَّوَاتِي ... حَيَّرَتنِي، في بُعدِها تَشرِيدِي
وحرامٌ عَلَى الهَوَى يا حَبِيبي ... أنْ يُحِيلَ السَّعِيدَ غَيرَ سَعِيدِ !
وحرامٌ عَلَى اللَّيالِي طَوَاني ... حَولَ أهوالِها الغِضابِ السُّودِ
وَأنا ما خُلِقتُ إلاَّ لِأشدُو ... في رِكابٍ مِنَ الجَمالِ فَرِيدِ

أيُّها اللَّيلُ ! في فُؤادِيَ لَيلٌ ... زاخِرُ المَوجِ لَيسَ بِالمَحدُودِ
وَسَيَهتَزُّ في ضُلُوعِكَ فَجرٌ ... يُوقِظُ الطَّيرَ لِلنَّهارِ الجَدِيدِ
وَأنا مُظلِمُ الجَوانِحِ ظَمآ ... نُ إلى فَجرِيَ المُنِيرِ الفَقِيدِ
لِي رَجاءٌ في رَحمَةِ اللهِ لَمَّا ... وَسِعَت في الوُجُودِ كُلَّ الوُجُودِ
أنْ يُنِيرَ الحَيَاةَ في قَلبِيَ الدَّا ... جِي وَيُقصِي عَنِّي هَزِيمَ الرُّعُودِ
فَأنا زَورَقٌ يُضَلِّلُهُ الإغـ ... ـصارُ عَن شَطِّهِ الأمِينِ الوَحِيدِ

* * *

حَجَبُوها ! وَمَن سَيُطلِقُ أمرًا ... بَ الأمانِي إلى وُكُورِ حَيَاتِي؟
حَجَبُوها ! وَمَن يُنَضِّرُ أغرًا ... مِي وَيَجنِي مَعَ الصَّبَا ثَمَراتِي؟
حَجَبُوها ! وَمَن يُجَمِّلُ عَيشِي ... وَيُغَذِّي بِحُسنِهِ صَبَوَاتِي ؟
وَلِمَن جِئتُ يا غَرامِي إلى الدُّنـ ... ـيا ؟ وَمَن ذاتُهُ تُكَمِّلُ ذَاتِي؟
حَجَبُوها ! فَمَن يُهَدهِدُ أشوَا ... قِي إلَيها وَلَهفَتِي وَشَكَاتِي؟
أيُهذَا القَضاءُ لا كُنتَ يا غَا ... دِرُ ! فَرَّقتَ في اللَّهِيبِ شَتَاتِي
وَشَرِبتَ الدِّماءَ مِن غَورِ قَلبِي ... وَاختَطَفتَ الضِّياءَ مِن بَسَمَاتِي
وَغَرَستَ الهُمُومَ في ذاتِ نَفسِي ... كَخَرابٍ تُدَكُّ في جَنَبَاتِي
وَزَرَعتَ الأشوَاكَ في طُرُقاتِي ... وَأرَقتَ الذُّهُولَ في نَظَرَاتِي !
فَعَبَرتُ السِّنِينَ كالطَّائِرِ المَحـ ... ـمُومِ أقتاتُ من رِمالِ الفَلاةِ
أيْنَ عُشِّي وَأيكَتِي وَغَدِيرِي ... وَزَهرَتِي وَوَلدَانِي ؟
وَلِماذا أبعَدتَنِي يا زَمانِي ... عَن حِماها ! فأظلَمَتْ طُرُقاتِي؟
أنا أهوَاكِ يا شَقِيقَةَ رُوحِي ! ... أنا أهوَاكِ يا حَيَاةَ حَيَاتِي !
فَنِيَتْ نَفسِي في هَوَاكِ كما لَوْ ... فَنِيَ النَّهرُ في الخِضَمِّ العَاتِي
وَتَلاشَيتُ في غَرامِكِ، وَاهتَا ... جَتْ مِنَ الشَّوقِ وَالجَوَى حُرُقاتِي
أنتِ شِطرِي وَكَيفَ يَبعُدُ شِطرٌ ... ثُمَّ تَحبُو إذا نَأى حَمَرَاتِي ؟
أنتِ إشرَاقَةٌ مِنَ اللهِ تَنسَا ... بُ وَتَمحُو بِنُورِهَا ظُلُمَاتِي
أنتِ مَعنًى فَوقَ الجَمالِ رَفِيعٌ ... أتَسَامَى إلَيهِ في صَلَوَاتِي
قَرَّبَنِي مِنَ الإلهِ وَهَاتِي ... مَا تَشَاءِينَ مِن كُنُوسِكِ هَاتِي
وَخُذِينِي إلَيكِ في كُلِّ مَعنًى ... مِن مَعَانِيكِ يا حَيَاةَ حَيَاتِي!

(القاهرة)

عبد الرحمن الخميسي